الاستقامة والتَّلذذ بحلاوة العبادة والطاعة

جمع
فهد بن عبدالعزيز بن عبدالله الشويرخ

حقوق الطبع والنشر لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين...أما بعد : فمن أجل نعم الله عز وجل على عبده، أن يوفقه للاستقامة على دينه، والتلذذ بعبادته وطاعته، فمن نال ذلك فقد نال كل خير، وفاز بسعادة الدارين، وكان من حزب الله المفلحين، ومن أوليائه الصالحين، وهذا بحث مختصر عن ذلك، أسأل الله الكريم أن ينفع به ويبارك فيه.

(٣)-

المقصود بالاستقامة على دين الله

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ [فصلت:٣٠]: أي أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرعه الله لهم، وقال العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في تفسير قول الله عز وجل : ﴿ فاستقيموا إليه ﴾ [فصلت:٦] : أي : اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى، بتصديق الخبر الذي أخبر به، وإتباع الأمر، واجتناب النهي، هذه هي حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك، وقال الإمام ابن رجب رحمه الله : الاستقامة : هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، من غير تعرج عنة، يمنةً ويسرةً، ويشمل ذلك : فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعه لخصال الدين كلها"

سؤال الله الاستقامة ومجاهدة النفس لنيلها

من أراد الفوز بكل مرغوب والنجاة من كل مرهوب، فليستقم على دين الله، وليسأل الكريم أن يوفقه للاستقامة، كان الحسن يقول : اللهم أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة.

وليجاهد نفسه، قال ابن المنكدر رحمه الله : كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت.

مجاهدة النفس على الثبات على الاستقامة

إذا وفق العبد المؤمن للاستقامة على دين الله، فإن عليه أن يجاهد نفسه على الثبات، قال عز وجل: ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ [هود:١٢] قال الحافظ ابن كثير رحمه : يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وقال الإمام ابن عطية رحمه الله : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالاستقامة وهو عليها، إنما هو أمر بالدوام والثبات.

(٤)-

الاستقامة نعمة عظيمة ومنحة جليلة

ومن وفق للاستقامة على دين الله، فهذه من أجل نعم الله عز وجل عليه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبداً بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه ويرفع درجته، وقال رحمه الله : الكرامة لزوم الاستقامة، وإن الله لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿ إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

أمر الشارع بسلوك طريق الاستقامة والترغيب في ذلك

قال الله عز وجل : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ﴾ [هود:١١٢] قال الشيخ أبو بكر الجزائري : من هداية الآيات : وجوب الاستقامة على دين الله تعالى عقيدةً عبادةً وحكماً وأدباً.

وعن سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه قال : قُلتُ : يا رسول الله قُل لي في الإسلام قولاً لا أسال عنه أحد بعدك. قال : (قُل آمنتُ بالله ثم استقم) [أخرجه مسلم]

الدعاء بالثبات على الاستقامة

من وفق للاستقامة على دين الله، فعليه أن يكثر من الدعاء بالثبات على الاستقامة، فعن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) قلت : فقلت : يا نبي الله، آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا ؟ قال :(نعم) إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله، يُقلبها كيف شاء) [أخرجه الترمذي] قال الإمام المباركفوري رحمه الله : (ثبت قلبي على دينك) أي اجعله ثابتاً على دينك، غير مائل عن الدين القويم، والصراط المستقيم.

(٥)-

التقصير في الاستقامة

يبقي الإنسان عبداً ضعيفاً، قد تغلبه نفسه حيناً، وشيطانه حيناً آخر، وقد تصيبه الغفلة، فيوجد لديه التقصير في استقامته، فمن رحمة الله عز وجل أن جعل له ما يجبر ذلك التقصير، وذلك في دوام التوبة والإنابة إلى الله، وكثرة الاستغفار، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : وفي قوله عز وجل : ﴿ فاستقيموا إليه واستغفروه ﴾ [فصلت:٦] إشارة إلى أنه لا بُدَّ من تقصيرٍ في الاستقامة المأمور بها، فيجبُرُ ذلك الاستغفار، المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة، فهو كقول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذٍ : (اتَّق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها) وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الناس لن يطيقوا الاستقامة حق الاستقامة، كما خرجه الإمام أحمد وابن ماجه من حديث ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يُحافظُ على الوضوء إلا مؤمن) وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى اله عليه وسلم قال : (سددوا وقاربوا) فالسدادُ هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والإعمال والمقاصد، قال العلامة ابن القيم رحمه الله : المطلوب من العبد الاستقامة، وهي السداد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة...وأخبر في حديث ثوبان أنهم لا يطيقونها، فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم"

النكوص عن الاستقامة

من نكص عن استقامته فلن يضر إلا نفسه، قال الله عز وجل : ﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضُرَّ الله شيئاً ﴾ [آل عمران:١٤٤] ومن أسباب النكوص عن الاستقامة : التشديد على النفس، فيما لم يشرعه الله وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك،

(٦)-

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيئاً من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا) [متفق عليه] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : قوله (سددوا) معناه اقصدوا السداد أي الصواب...فاعملوا واقصدوا بعملكم الصواب أي اتباع السنة من الإخلاص وغيره.وقوله (وقاربوا) أي لا تفرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة، لئلا يفضي بكم ذلك إلى الملال فتتركوا العمل فتفرطوا قوله (واغدوا وروحوا وشيئاً من الدلجة)..فيه إشارة إلى الحث على الرفق في العبادة، قوله (القصد القصد) أي الزموا الطريق الوسط المعتدل.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: ما أمر الله عز وجل بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزعتان :إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطتين، فإنه يأتي إلى قلب العبد فيُشامه، فإن وجد فيه تقصيراً وفتوراً وتوانياً وترخيصاً أخذه من هذه الخطة، فثبطه وأقعده، وضربه بالكسل والتواني والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء..حتى ربما ترك العبد المأمور جملة، وإن وجد عنده حذراً وجداً..وأَيِسَ أن يأخذه من هذا الباب أمره بالاجتهاد الزائد، وسوَّل له أن هذا لا يكفيك...وينبغي لك أن تزيد على العاملين، وأن لا ترقدوا إذا رقدوا، ولا تفطر إذا أفطروا، وأن لا تفتروا إذا فتروا...ونحو ذلك من الإفراط والتعدي، فيحمله على الغلو والمجاوزة، وتعدي الصراط المستقيم، كما يحمل الأول على التقصير دونه...ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم..وقد فتن بهذا أكثر الخلق، ولا يُنجي من ذلك إلا علم راسخ وإيمان وقوة على محاربته ولزوم الوسط.

(٧)-

استقامة الجوارح

يخطئ من يظن أن الاستقامة هي استقامة المظهر فقط، فاستقامة المظهر جزء يسير من الاستقامة، والاستقامة الحقيقية هي استقامة الجوارح، وعلى رأسها القلب، الذي متى استقام استقامت بقية الجوارح، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إلا وإن في الجسم مضغة، إذا صلحت صلح الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب) [متفق عليه] فينبغي لمن رام الاستقامة أن يعتني بصلاح قلبه واستقامته، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : أصلُ الاستقامة استقامة القلب على التوحيد...فمتى استقام القلب على معرفة الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتوكل عليه، والإعراض عما سواه، استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه...وأعظم ما يراعي استقامته بعد القلب من الجوارح : اللسان، فإنه ترجمان القلب والمعبر عنه....وفي مسند أحمد عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يستقيم إيمان عبد، حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه) وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري، مرفوعاً، وموقفاً : (إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول : اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا)

(٨)-

الملائكة أولياء للمستقيمين على طاعة الله في الدنيا والآخرة وعند الاحتضار

من استقام على دين الله فليبشر بكل خير، في الدنيا وفي الآخرة، قال عز وجل : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ۞ نحن أولياؤكم في الحياة وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ۞ نُزُلاً من غفور رحيم ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] فالملائكة أولياء لعباد الله الصالحين، في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يحثونهم على خير، ويحذرونهم من كل شر، ويحفظونهم بأمر الله، وهم معهم في الآخرة، عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، ويؤمنونهم يوم البعث والنشور، وفي القيامة وأهوالها، ويجاوزنهم بهم الصراط إلى جنات النعيم، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : وقوله تعالى : ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة وفي الآخرة ﴾ أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار، نحن كنا أولياءكم أي قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم.

الجزاء من جنس العمل في الثبوت على الصراط في الآخرة

قال العلامة ابن القيم من هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه هُدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوتُ قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم.

حلاوة العبادة

مظاهر حلاوة العبادة

من وجد حلاوة العبادة، أحسَّ بانشراحٍ في صدره، وسعادة في قلبه، أثناء قيامه بأداء العبادات، وبعد الانتهاء منها، وأحسَّ بتعلق قلبه بالعبادة، فهو لا يبرح من أداءها حتى يتشوق لفعلها مرة ثانية، وأحسَّ بسهولة وبحلاوة في أدائها، وهذه الحلاوة تتفاوت من إنسان إلى آخر، ومن وقت لآخر، بحسب قوة الإيمان واليقين وضعفه، وهذه الحلاوة تحصل بحصول أسبابها، وتزول بزوالها، وتضعف بضعفها.

قال القاضي عياض رحمه الله : المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان، سهلت عليه طاعات ربه، ولذت له، ولم يشق عليه معاناتها، وقال الإمام النووي رحمه الله : قال العلماء رحمهم الله : معني حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات في رضي الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإيثار ذلك على عرض الدنيا، وقال الإمام ابن رجب رحمه الله : إذا ذاق العبد حلاوة الإيمان، ووجد طعمه وحلاوته، ظهر ثمرة ذلك على لسانه وجوارحه، فاستحلى ذكر الله وما والاه، وأسرعت الجوارح إلى طاعة الله.

حلاوة محبة الله جل جلاله

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : المحبة..المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمَّر السابقون، وعليها تنافس المحبّون، وبروح نسيمها تروَّح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقُرَّةُ العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميعُ الأسقام، واللَّذَّةُ التي من لم يظفر بها فعيشه كلُّه هموم وآلام.

وقال رحمه الله : من ذاق حلاوة معرفة الله والقرب والأنس به، لم يكن له أمل في غيره.

وقال رحمه الله : محبة الله سبحانه والأُنس به، والشوق إلى لقائه، والرضا به وعنه، أصل الدين...فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزكية أحلى ولا ألذَ ولا أطيب ولا أسرُّ..من محبته والأنس به والشوق إلى لقائه....والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتمّ من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة....فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب، وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يُعرفُ إلا بالذوق والوجد، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حبّاً لغيره، ولا أُنساً به، وكلما ازداد له حباً ازداد له عبودية وذلاً وخضوعاً ورقاً له، وحرية عن رقِّ غيره.

وقال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله : لا تجد شيئاً ألذّ من محبة الله سبحانه وتعالى

-(١١)

حلاوة الإيمان

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : الإيمان إذا باشر القلب، وخالطته بشاشته...له من الحلاوة في القلب، واللذة، والسرور، والبهجة، ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه، والناس متفاوتون في ذوقه، وقال العلامة ابن عثيمين رحمه الله : حلاوة الإيمان : ما يجده

الإنسان في نفسه وقلبه من الطمأنينة والراحة والانشراح، وليست مُدركة باللعاب والفم...فالإيمان له حلاوة وله طعم لا يدركه إلا من أسبغ الله عليه نعمته بهذه الحلاوة وبهذا الطعم، وقال رحمه الله : الإيمان...له مذاق لا يماثله مذاق، لا مذاق السكر، ولا العسل، ولا غيره، فكلما قوى الإيمان، وجد الإنسان للإيمان طعماً لا يماثله شيء من طُعوم الدنيا أبداً، وقال رحمه الله : طعم الإيمان يبقي مدة طويلة، حتى إن الإنسان أحياناً يفعل عبادة في صفاء وحضور قلب وخشوع لله عز وجل، فتجده يتطعم بتلك العبادة مدة طويلة، فالإيمان له حلاوة وله طعم لا يدركه إلا من أسبغ عليه نعمته بهذه الحلاوة وهذا الطعم.

وأكثر المسلمين لم يذوقوا حلاوة الإيمان، قال الله جل جلاله : ﴿ قالت الأعراب آمنا قُل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ [الحجرات:١٤] قال العلامة ابن القيم رحمه الله : فهؤلاء مسلمون، وليسوا بمؤمنين، لأنهم ليسوا ممن باشر الإيمان قلبه، فذاق حلاوته وطعمه، وهذا حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام.

ومن الأعمال تنال بها حلاوة الإيمان : غض البصر عن ما حرم الله

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : في غضِّ البصر..منافع...الثاني عشر : حلاوة الإيمان ولذته.

-(١٢)

ومنها : أن تكون محبة الله ورسوله أحب إليه مما سواهما،المحبة في الله،أن يكره أن يعود في الكفر.

فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحبّ المرء لا يُحبهُ إلا لله،

وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[متفق عليه]قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :محبة الله على قسمين فرض وندب،فالفرض المحبة التي تبعث على امتثال أوامره والانتهاء عن معاصيه والرضا بقدره والندب أن يواظب على النوافل ويتجنب الوقوع في الشبهات..وكذلك محبة الرسول على قسمين كما تقدم ويزاد أن لا يتلقي شيئاً من المأمورات والمنهيات إلا من مشكاته ولا يسلك إلا طريقته ويرضي بما شرعه.ويتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار والحلم والتواضع وغيرها..فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان.

ومنها : الرضا بقضاء الله وبشرعة وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً.

فعن العباس رضي الله عنه أن النبي صلى اله عليه وسلم قال :(ذاق طعم الإيمان، من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً) [أخرجه مسلم] قال الإمام ابن رجب رحمه الله : الرضا بربوبية الله تتضمن الرضا بعبادته وحده لا شريك له، وبالرضا بتدبيره للعبد واختياره له والرضا بالإسلام ديناً يتضمن اختياره على سائر الأديان، والرضا بمحمد رسولاً يتضمن الرضا بجميع ما جاء به من عند الله وقبول ذلك بالتسليم والانشراح كما قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتَّى يُحكّموك فيما شجر بينهم ﴾ [النساء:٦٥]

(١٣)-

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله : قوله صلى الله عليه وسلم : (من رضي بالله رباً) يشمل رُبوبية الشرع، ورُبُوبية القدر، فربوبية القدر : أن يرضي بقضاء الله تعالى وقدره، له أو عليه، ورُبُوبية الشرع : أن يرضي بشرع الله تعالى، أمراً كان أو نهياً...وقوله : (وبالإسلام ديناً) يُخرجُ جميع الأديان سوى الإسلام..وقوله :(وبمُحمدٍ رسولاً) يعني مُتبعاً

وإذا خالطت حلاوة الإيمان القلب، جعلت صاحب هذا القلب يتمسك بدينه، ولا يرتد عنه، مهما كانت الأسباب، ومهما كثرت المغريات، ومهما تنوعت طرق الإغراء، ومهما تعددت أشكال الإغواء، فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : أخبرني أبو سفيان أن هرقل قال له : سألتك هل يزيدون أم ينقصون، فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتَّي يتم، وسألتك هل يرتد أحد سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان حينَ تُخالط بشاشتُهُ القُلُوب لا يسخطه أحد.

-(١٤)

حلاوة الذكر

لذكر الله حلاوة ولذة، قال مالك بن دينار : ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله"

ومن يكثر من ذكر الله بقلبه ولسانه، يجدُّ لذكره حلاوةً في قلبه، وانشراحاً في صدره، وأُنساً وفرحاً في نفسه، ولذةً لا تماثلها لذة، قال العلامة ابن القيم رحمه الله : للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شيء، فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكر،

والنعيم الذي يحصل لقلبه لكفى به، ولهذا سميت مجالس الذكر رياض الجنة...فليس شيء من الأعمال أخف مؤونة منه، ولا أعظم لذة، ولا أكثر فرحة وابتهاجاً للقلب.

وقد يحرم العبد هذه الحلاوة وهذه اللذة بسبب حبُّ الدنيا، قال مالك بن دينار رحمه الله : وقد روي أن الله سبحانه وتعالى يقول : إن أهون ما أنا بصانع بالعالم إذا أحبَّ الدنيا أن أخرج حلاوة ذكري من قلبه، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : قال بعض الحكماء : الذكر للقلب بمنزلة الغذاء للجسد، فكما لا يجدُ الجسد لذة الطعام مع السقم فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذكر مع حب الدنيا.

(١٥)-

حلاوة الصلاة

للصلاة حلاوة يجدها من جاهد نفسه للتنعم بها، قال محمد بن المنكدر رحمه الله : كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة.

من رام حلاوة الصلاة، فينبغي له أن يؤديها بخشوع وطمأنينة، بجميع أركانها، وواجباتها، وسننها، وشروطها، وعند ذاك سيجد حلاوة الصلاة، قال العلامة ابن القيم رحمه الله : الصلاة..من أدى حقها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه، فهذا

إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه، وأحس بأثقالٍ قد وضعت عنه، فوجد نشاطاً وراحةً، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها، لأنها قرةُ عينه، ونعيمُ روحه، وجنة قلبه، ومُستراحُه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها، فيستريح بها، لا منها، فالمحبُّون يقولون : نصلي فنستريح بصلاتنا، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم صلى الله عليه وسلم : (يا بلالُ أرِحنا بالصلاة) ولم يقل أرحنا منها، فمن جعلت قرة عينه في الصلاة، فكيف تقر عينه بدونها وكيف يطيق الصبر عنها.؟

وقال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله : إذا قمت تصلى وأنت صافي القلب بعيداً من الدنيا، مقبلاً على الله، تجد في هذه الصلاة محبة الله ولذة عظيمة تنسيك الدنيا كلها، لأنك لا تجد شيئاً ألذّ من محبة الله سبحانه وتعالى، وقال : الإنسان إذا أدى الصلاة بخشوع وحضور قلب، فإنه يجد من نفسه وهو ساجد أو يشعر وهو ساجد أنه قريب من الله يدعوه ويناجيه وهو أيضاً يشعر بأن الله تبارك وتعالى فوق كل شيء أنه قريب منه، وأنه فوق كل شيء.

(١٦)-

حلاوة قراءة القرآن وتدبره وفهم معانيه

لقد اجتهد سلف الأمة في تلاوة القرآن الكريم، وتدبره، وفهم معانيه ، حباً لكلام الله وتلذذاً بتلاوته، فلتلاوة لقرآن الكريم وتدبر معانية حلاوة ولذة، والإكثار من تلاوته وترديده يزيده حلاوة ومحبة، قال الإمام السيوطي رحمه الله في وجوه إعجاز القرآن: منها إن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الاكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وقال العلامة ابن القيم رحمه الله : فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمه بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وقال الإمام الزركشي رحمه الله :

قال الخطابي : وقلتُ في إعجاز القرآن وجهاً آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ في آحادهم، وهو صنيعة في القلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في حال أخرى، ما يخلص منه إليه، قال الله تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً مُتصدعاً من خشية الله ﴾ [الحشر:٢١] وقال تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً مُتشابهاً مثاني تقشعرُّ منه جُلُود الذين يخشون ربهم ﴾ [الزمر:٢٣] قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : كان داود الطائي يترنم بالآية في الليل، فيري من سمعه أنَّ جميع نعيم الدنيا جُمِعَ في ترنُّمه، وقال أحمد بن أبي الحواري : إني لأقرأُ القرآن، فأنظر فيه آية آية، فيحار فيها عقلي، وأعجبُ من حفاظ القرآن، كيف يهنيهم النوم، ويسعهم أن يشتغلوا بشيءٍ من الدنيا، وهم يتلون كلام الله !! أما لو فهوا ما يتلون وعرفوا حقه، وتلذذوا به، واستحلوا المناجاة به، لذهب عنهم النوم فرحاً بما قد رزقوا.

-(١٧)

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم إذا اجتمعوا واشتاقوا إلى حادٍ يحدُو بهم ليطيب لهم السيرُ، ومُحركٍ يُحرّك قلوبهم إلى محبوبهم، أمروا واحداً منهم يقرأ والباقون يستمعون، فتطمئن قلوبهم، وتفيض عيونهم ويجدون من حلاوة الإيمان أضعاف ما يجده السماعاتية من حلاوة السماع

وحلاوة القرآن تكون لأصحاب القلوب الطاهرة، قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله، وقال العلامة ابن القيم رحمه الله : قول الله تعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم ۞ في كتب مكنون ۞ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٩] فحقيقة هذا أنه لا يمسُّ محله إلا المطَّهر، وإشارته أنه لا يجد حلاوته ويذوق طعمه ويباشر حقائقه، إلا القلب المطهَّر من الأنجاس والأدناس"

وقد حذر السلف رحمهم الله من أنه سوف يأتي على الناس زمان، يقرأ الناس القرآن، لا يجدون له حلاوة، قال الإمام ابن رجب رحمه الله : عن حذيفة قال : يوشك أن يُدرس الإسلام، كما يدرس وشي الثوب، ويقرأ الناس القرآن لا يجدون له حلاوة، وعن أبي العالية قال : سيأتي على الناس زمان، تخرب فيه صدورهم من القرآن، وتبلى كما تبلى ثيابهم....لا يجدون له حلاوة، ولذاذة"

وقد يحرم العبد لذة وحلاوة القرآن إذا قرأ القرآن بغير تدبر، قال الإمام الزركشي رحمه الله : من لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر لم يدرك من لذة القرآن شيئاً.

وقد يحرم حلاوة القرآن بسبب سماع الغناء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : القلب إذا تعود سماع القصائد والأبيات وألتذَّ بها، حصل له نفور من سماع القرآن والآيات، فيستغني بسماع الشيطان عن سماع الرحمن.ويمنع قلوبهم حلاوة القرآن وفهم معانيه وإتباعه.

-(١٨)

حلاوة قيام الليل

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله :كان أبو سليمان يقولُ : أهلُ الليل في ليلهم ألذُّ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليلُ ما أحببتُ البقاء في الدنيا.

وقال أبو زيد معضد العجلي رحمه الله : لولا ظمأ الهواجر وطول ليل الشتاء ولذاذة التهجد بكتاب الله عز وجل ما باليت أن أكون يعسوباً.

قال ثابت البناني رحمه الله : ما شيء أجده في قلبي ألذ عندي من قيام الليل.

قال الشيخ بدر بن ناصر البدر عن سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم : قد بلغوا رحمهم الله تعالى، في هذا مبلغاً عظيماً، حين أحبوا قيام الليل للصلاة، وتلاوة القرآن، والدعاء، لما يجدون في ذلك من الأنس ولذة التلاوة، وحلاوة المناجاة،

واشتاقوا إلى قدومه حيث يجدون فيه راحتهم وسعادتهم، ويسألون الله تعالى المزيد من فضله، وألا يحرمهم هذا الخير الذي وفقوا له، وأعينوا عليه، وقد حرمه آخرون"

حلاوة الدعاء والمناجاة

الدعاء إذا كان من قلب مخلص، صادق، منكسر، فله حلاوة ولذة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : قال بعض الشيوخ : إنه ليكون لي إلى الله حاجة فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته، وحلاوة مناجاته، ما لا أحبُّ معه أن يعجل قضاء حاجتي، خشية أن تنصرف نفسي عن ذلك، لأن النفس لا تريد إلا حظها، فإذا قضي انصرفت، وقال العلامة ابن القيم رحمه الله : وربما يُفتحُ على قلبه، حال السؤال من معرفة الله ومحبته، والذلِّ له، والخضوع، والتملق ما ينسيه حاجته، ويكونُ ما فُتح له من ذلك أحبَّ إليه من حاجته، بحيث أن تدوم له تلك الحال، وتكون آثر عنده من حاجته وفرحه بها أعظم من فرحه بحاجته، لو عُجلت له وفاته ذلك.

-(١٩)

حلاوة طلب العلم الشرعي

لطلب العلم الشرعي حلاوة ولذة، لا يعرفها إلا من وفقه الكريم إليها، قال الإمام الذهبي رحمه الله قال أحمد بن فارس اللغوي سمعت الأستاذ ابن العميد يقول : ما كنتُ أظن أن في الدنيا حلاوة ألذ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها، حتى شاهدت مذاكرة أبي القاسم الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي، فكان الطبراني يغلب أبا بكر بكثرة حفظه وكان أبو بكر يغلبه بفطنته وذكائه حتى ارتفعت أصواتهما ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه فقال الجعابي عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي فقال : هات فقال : حدثنا أبو خليفة الجمحي حدثنا سليمان بن أيوب وحدث بحديث فقال الطبراني : أخبرنا سليمان بن

أيوب ومني سمعه أبو خليفه فأسمع مني حتى يعلو فيه إسنادك، فخجل الجعابي فوددت أن الوزارة لم تكن، وكنت أنا الطبراني، وفرحت كفرحه، أو كما قال

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله : السعادة الحقيقية، هي سعادة نفسانية روحية قلبية، وهي سعادة العلم النافع وثمرته فإنها هي الباقية على تقلب الأحوال والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره، وفي دوره الثلاثة، أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وبها يترقى في معارج الفضل ودرجات الكمال..وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث على طلبها إلا العلم بها.وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها لوعورة طريقها ومرارة مباديها وتعب تحصيلها وأنها لا تنال إلا على جسر من التعب فإنها لا تحصل إلا بالجدِّ المحض.وهذه السعادة وإن كانت في ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة والكره والتأذي، فإنها متى أكرهت النفس عليها، وسيقت طائعة وكارهة إليها، وصبرت على لأوائها وشدَّتها، أفضت منها إلى رياض مؤنقة، ومقاعد صدق ومقام كريم، تجدُ كلَّ لذَّة دونها كلذَّة لعب الصبي بالعصفور بالنسبة إلى لذَّة الملوك.

-(٢٠)

حلاوة العفو عن الإساءة

للعفو عن الإساءة حلاوة ولذة، قال العلامة ابن القيم رحمه الله : أن يشهد أنه إذا عفا وأحسن، أورثه ذلك سلامة القلب لإخوانه، ونقائه من الغش، والغل، وطلب الانتقام، وإرادة الشر، وحصل له من حلاوة العفو، ما يزيد لذته ومنفعته عاجلاً أو آجلاً، على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعاف مضاعفة، ويدخل في قوله تعالى : ﴿ والله يحبُّ المحسنين ﴾ [آل عمرن/١٣٤] فيصير محبوباً لله ويصير حالَه حال من أُخذ منه درهم فعُوض عليه ألوفاً من الدنانير فحينئذ يفرح بما منَّ الله عيه أعظم فرحاً يكون.

حلاوة العفة

للعفة عن ما حرم الله : لذة وحلاوة، قال العلامة ابن القيم رحمه الله بعد أن ذكر قصص طائفة عفَّوا عن الحرام : وهذه الطائفة لعفتهم أسباب....لذة الظفر بالعفة، فإن للعفة لذةً أعظم من لذة قضاء الوطر، لكنها لذة يتقدمها ألمُ حبس النفس، ثم تعقبها اللذة"

حلاوة العطاء

بعض من وفقه الله للخير، يجد لذة وحلاوة لإعطاء الآخرين مما أعطائه الله من فضله وجوده، من : صدقة بمال، أو تعليم علم، أو شفاعة بجاه، أو نصحٍ وإرشاد، أو تقديم استشارة، ونحوها، فلا يرتاح إلا إذا بذل وأعطى لله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله عن أحد السلف أنه قال : إنّي لأفرح بالعطاء، وألتذُّ به أعظم مما يفرحُ الأخذُ بما يأخذه مني"

(٢١)-

أسباب حرمان حلاوة العبادة ولذتها

المعاصي والذنوب

حلاوة العبادة في طاعة الله ورضوانه، قال الله عز وجل : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أُنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ [النحل:٩٧] قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : قال الضحاك : هي العمل بالطاعة والانشراح لها، وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله : قال الحسن وغيره من السلف : لنرزقنه عبادةً يجدُ حلاوتها في قلبه"

فأهل الذنوب والمعاصي لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها، ولا يتنعمون بها، فالعبادات ليست قرة أعينهم، ولا سرور قلوبهم، ولا غذاء أرواحهم وحياتهم، قال بشر الحارث رحمه

الله : لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات سداً، أو حائطاً من حديد، وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : القلب لا يجدُ حلاوة العبادة مع الذنوب

قيل لوهيب ابن الورد رحمه الله : يجد طعم العبادة من يعصي؟ قال: ولا من يهم بالمعصية.

وذكر ابن القيم رحمه الله: أن من عقوبة الذنب : محو لذة الذكر والقراءة والدعاء والمناجاة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فالمؤمن المحب لله ورسوله، الذي يحب الله ورسوله، أعظم من كل شيء، والله ورسوله أحب إليه مما سواهما، والذي يخشى الله ويخافه إذا عصاه، هو في حال حصول حبه التام، وخوفه في قلبه، لا يفعل شيئاً من ذلك، بل حب الله ورسوله الذي وجد حلاوته وهو أحب إليه من هذه المنهيات التي يبغضها الله ورسوله، ومتى وقع فيها نقص ذلك الحب وتلك اللذة الإيمانية، فلو كانت اللذة الإيمانية الكاملة موجودة لما قدم عليها لذة تنقصها وتزيلها.

-(٢٢)

وقال الإمام ابن رجب رحمه الله : الذنوب تتبعها ولا بد من الهموم والآلام وضيق الصدر والنكد، وظلمة القلب، وقسوته أضعاف ما أضعاف ما فيها من اللذة، ويفوتُ بها حلاوة الطاعات"

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله عن فوائد ترك الذنوب : ذوقُ حلاوة الطاعة وحلاوة الإيمان، وقال رحمه الله : العبد في حال معصيته واشتغاله..بشهوته ولذته، تكون تلك اللذة والحلاوة الإيمانية قد استترت عنه وتوارت، أو نقصت أو ذهبت، فإنها لو كانت موجودة كاملة لما قدم عليها لذة وشهوة لا نسبة بينها بوجه ما، بل هي أدنى من حبة خردل بالنسبة إلى الدنيا وما فيها...ولهذا تجد العبد إذا كان مخلصاً لله، منيباً إليه، مطمئناً بذكره، مشتاقاً إلى لقائه..منصرفاً عن هذه المحرمات، لا يلتفت إليها، ولا يُعول عليها.

عبادة الله على غير بصيرة وعلم

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله : قال تعالى : ﴿ قُل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [سورة الزمر:٩] فالذي يعبد الله على بصيرة يجد لعبادته لذةً وحلاوةً عظيمة، بخلاف من يعبد الله على غير علم ولا بصيرة.

الوقوع في المُشتبهات

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله : من رزق قلباً طيباً ولذة مناجاة، فليراع حاله وليحترز من التغير، وإنما تدوم له حاله بدوام التقوى، وكنتُ رزقتُ قلباً طيباً، ومناجاة حلوة، فأحضرني بعض أرباب المناصب إلى طعامه...فتناولت وأكلت منه، فلقيت الشدائد، ورأيت العقوبة في الحال، واستمرت مدة وغضبت على قلبي، وفقدت كل ما كنتُ أجده. (٢٣)-

صحبة الفاسقين، محبة الدنيا، طلب رضا الناس المفضي لترك الحق

قال الإمام الذهبي : قال نصر بن محمود البلخي : قال أحمد بن حرب رحمهم الله : عبدت الله خمسين سنة، فما وجدت حلاوة العبادة، حتى تركت ثلاثة أشياء : تركت رضا الناس حتى قدرت أن أتكلم بالحق، وتركت صحبة الفاسقين حتى وجدت صحبة الصالحين، وتركت حلاوة الدنيا حتى وجدت حلاوة الآخرة.

-(٢٤)

علاجُ من لا يجد في قلبِهِ حلاوةً للطاعة

لحلاوة الإيمان والعبادة آثار لابد أن تظهر على من رزقه هذه الحلاوة، قال الإمام ابن رجب رحمه الله : ذكر ابن المبارك عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه دخل المدينة، فقال لهم : ما لي لا أرى عليكم يا أهل المدينة حلاوة الإيمان ؟ والذي نفسي بيده لو أن دب الغابة وجد طعم الإيمان، لرؤى عليه حلاوة الإيمان.

فإن لم تظهر هذه الآثار فالباب مغلق، قال الحسن البصري رحمه الله : تفقدوا الحلاوة في ثلاث : في الصلاة، وفي القرآن، وفي الذكر، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلم أن بابك مغلق.

ومتى شعر العبد أنه لا يجد حلاوة في قلبه للطاعة والعبادة، فليراجع نفسه ليعرف أسباب ذلك، قال العلامة ابن القيم رحمه الله : سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول : إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً، فاتّهمه، فإن الرب تعالى

شكور، يعني أنه لا بد أن يُثيب العامل على عمله في الدنيا، من حلاوة يجدها في قلبه، وقُوة انشراح وقُرَّة عينٍ، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول"

كما أن عليه أن يجاهد نفسه في التوبة من الذنوب، ويكثر من التوبة والاستغفار، متبرئاً من حوله وقوته، سائلاً الله عز وجل الإعانة والتوفيق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وإذا رأى أنه لا ينشرح صدره ولا يحصل له حلاوة الإيمان ونور الهداية فليكثر التوبة والاستغفار وليلازم الاجتهاد بحسب الإمكان، فإن الله يقول : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ وعليه بإقامة الفرائض ظاهراً وباطناً ولزوم الصراط المستقيم مستعيناً بالله، متبرئاً من الحول والقوة إلا به"

(٢٥)-

والعبد قد يُبتلى ليذوق حلاوة الإيمان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فمن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين، أن ينزل بهم الشدة والضر، ما يلجئهم إلى توحيده، فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونه ولا يرجون أحداً سواه، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه، والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان، وذوق طعمه...من هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض...أو حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة"

إن السعيد من فتح له باب حلاوة الطاعة والعبادة، الشارحة للصدر، المزيلة للهم والحزن، الموصلة لنعيم الآخرة، وهذه الحلاوة واللذة قال عنها من ذاقها من سلف هذه الأمة : مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها، وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها، وقال الآخر : إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها، لم يدخل جنة الآخرة، وقال ثالث : لو علم الملوك وأبناء الملوك، ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وأي لذة يجدها العبد في غير طاعة الله وعبادته، فهي لذة تنقلب آلاماً وعذاباً في الدنيا قبل الآخرة، قال العلامة ابن القيم رحمه الله : إن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سبباً إلى خيرٍ قط، وقال رحمه الله لا تظن أن قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ۞ وإن الفجار لفي جحيم ﴾ [الانفطار:١٣-١٤] مختص بيوم الميعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وقال رحمه الله : وتلك اللذَّة أجلبُ شيءٍ للهموم والغموم عاجلاً وآجلاً، ففي لذة ذكر الله، والإقبال عليه، والصلاة بالقلب والبدن، من المنفعة الشريفة العظيمة، السالمة عن المفاسد، الدافعة للمضار، غنىً وعوض للإنسان – الذي هو إنسان– عن تلك اللذّةَ الناقصة القاصرة، المانعة لما هو أكمل منها، الجالبة لألمٍ أعظم منها"

اللهم يا كريم ارزقنا حلاوة طاعتك وعبادتك.

-(٢٦)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
المقصود بالاستقامة على دين الله	٤
سؤال الله عز وجل الاستقامة، ومجاهدة النفس لنيلها	٤
مجاهدة النفس على الثبات على الاستقامة	٤
الاستقامة نعمة عظيمة ومنحة جليلة	٥
أمر الشارع بسلوك طريق الاستقامة والترغيب في ذلك	٥
الدعاء بالثبات على الاستقامة	٥
التقصير في الاستقامة	٦

النكوص عن الاستقامة	٦
استقامة الجوارح	٨
الملائكة أولياء للمستقيمين على طاعة الله في الدنيا والآخرة وعند الموت	٩
الجزاء من جنس العمل في الثبوت على الصراط في الآخرة	٩
حلاوة العبادة	١٠
مظاهر حلاوة العبادة	١٠
حلاوة محبة الله جل جلاله	١١
حلاوة الإيمان	١٢
حلاوة الذكر	١٥

-(٢٧)

حلاوة الصلاة	١٦
حلاوة قراءة القرآن وتدبره وفهم معانيه	١٧
حلاوة قيام الليل	١٩
حلاوة الدعاء والمناجاة	١٩
حلاوة طلب العلم الشرعي	٢٠
حلاوة العفو عن الإساءة	٢١
حلاوة العفة	٢١
حلاوة العطاء	٢١
أسباب حرمان حلاوة العبادة والتلذذ بها	٢٢
المعاصي والذنوب	٢٢

عبادة الله على غير بصيرة وعلم	٢٣
الوقوع في المشتبهات	٢٣
صحبة الفاسقين، محبة الدنيا، طلب رضا الناس المفضي لترك الحق	٢٤
علاج من لا يجد في قلبه حلاوةً للطاعة	٢٥
الفهرس	٢٧